الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية

تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم ديوبند ، يوبي ، الهند

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٧ ، السنـــــة : ٥٠

رجب ١٤٤٧هـ ، يناير ٢٠٢٦م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني

رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت

Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني

E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي

دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)

الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor

AL – DAIE

Arabic Islamic Monthly

Darul – Uloom,

Deoband – 247554

(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph. : (00-91-1336) 222429

Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- رحلة الإسراء والمعراج... تسلية للرسول ودليل على قدرة الله — التحرير — ٣

كلمة العدد

- قصة الإسراء والمعراج ... إيحاءات ودلالات — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ١٠
- شبهات و ردود — المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ — ١٧
- الجهل سيد الموقف — الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد — ٢١

دراسات إسلامية

- كيف تدير الصلاة حياتنا؟ — الأستاذ أحمد بسام ساعي — ٢٦
- قصة الإسراء والمعراج كما تحدث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — الدكتور أحمد عمر هاشم — ٢٩
- وقفات وتأملات .... في ضوء ما أفاده حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي — الأستاذ محمد رضي الرحمن القاسمي — ٣٥
- موقف الإسلام من الفقراء — فضيلة الأستاذ سيد شريف — ٤٥
- حفظ اللسان — الأستاذ عبد الحميد حجازي — ٤٩

أنباء الجامعة

- وزير الخارجية الأفغاني يزور الجامعة على رأس وفد رفيع المستوى — التحرير — ٥١

إشراقة

- أما على الخير أعوان وأنصار؟! — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

وقفات وتأملات

في الآية القرآنية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾

في ضوء ما أفاده حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله

جمع، ترتيب وتعريب بقلم: **الأستاذ محمد رضي الرحمن القاسمي**

المدخل

إن أيسر طريق إلى الله عز وجل هو ألا يقنع العبد ولا يرضى عن حاله الناقصة؛ بل عليه أن يسعى لتحصيل الكمال في الدين. وطريق ذلك هو إكمال الأعمال، بألا يُقصِّر ولا يتكاسل عن أداء الفرائض والواجبات، ولا يرتكب المحرمات. ولعلاج ما يعترض النفس من مقاومة في إكمال الأعمال، يجب اختيار صحبة الصالحين والكامِلين.

المقصود والطريق الموصلة إليه

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾(التوبة:١١٩)، هذه آية موجزة قد بيَّن الله تعالى فيها مقصودًا، وعيَّن معه الطريق الموصِل إليه. فإذا تبيّن المقصود وتعيّن الطريق وكان سهلًا، فحينئذٍ يكون الوصول إليه سهلا وميسورًا. أما الفشل فهو إما لعدم تعيين المقصود، أو لعدم معرفة الطريق الصحيح، أو لصعوبة الطريق بحيث لا يقدر المرء على سلوكه. ومن فشل بعد كل ذلك، فإنما فشله يعود إلى كسله وتهاونه فقط.

وهذا الفاشل المتكاسل ممن يتوهم أن المقاصد تُنال بالأماني، وهذا خطأ جسيم. فلو تمنى أحدهم أن يملأ بيته بالحبوب، ولم يحرث أرضًا، ولم يشترِ شيئًا، ولم يسعَ في أي سبيل، فهل تملأ أمنيته بيته؟ لا؛ لأن سنة الله في هذا العالم لا تجري على الأمنيات. نعم، قد يقع ذلك خرقًا للعادة، لحكمة إلهية أو معجزة نادرة؛ ولكن النادر لا يُعوَّل عليه؛ لأن النادر كالمعدوم. فالحياة لا تُبنى على الاستثناء؛ بل على القانون الإلهي الثابت: العمل ثم النتيجة.

للآية التي بين أيدينا، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، جزآن:(١) «ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ»، (٢) «وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ». وهذا من إعجاز القرآن، حيث جَمَعَ بحر العلوم والمعاني في جملتين. فَسَتَرى -إن شاء الله- بعد معرفة التفاصيل أن الله تعالى قد ضمّن هاتين الجملتين معنىً بالغ الأهمية.

يمكن أن يكون لتفسير جمل القرآن عناوين

مختلفة. لذلك، من الممكن أن يكون مفسر ما قد اختار عنوانًا آخر في تفسير هذه الآية، ولكن ذلك الاختلاف يكون في العنوان فقط. أما المعنى فيكون واحدًا. والذي فَهمتُه من معنى هذه الآية هو أن في «اتَّقُوا اللَّهَ» ذكرًا للمقصود، وفي «وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» ذكرًا لطريق ذلك المقصود.

إن الذين يتدبرون القرآن الكريم ويتأملون في معانيه، يدركون تمامًا أن الله تعالى كثيرًا ما يذكر في كتابه العزيز المقاصدَ مقرونةً بوسائل مُوصِلة إليها، وهذا منتهى شفقته ورحمته، إذ لا يأمر عباده بأمر ويتركهم في حيرة من أمرهم؛ بل يبيّن لهم الطريق لتحقيق ذلك المقصود ويقول: «افعلوا كذا، واتبعوا هذا السبيل». وبالنظر إلى هذه العادة الإلهية، أستطيع القول بكل يقين: إن هذه الآية الكريمة أيضًا تتبع نفس النهج: فـ«اتَّقُوا اللَّهَ» هو بيان للمقصد، و«كُوْنُوا مَعَ الصَّادِقِيْنَ» هو بيان لطريقة تحقيق ذلك المقصد. أو بعبارة أخرى، فإن الله تعالى يأمرنا بتحقيق الكمال في الدين، ويبين أن صحبة الكاملين هي طريق تحصيله. وسأوضح لاحقًا أن تفسير التقوى هو عين الكمال في الدين، ولكن الآن أريد أن أبيِّنَ أن تحصيل الكمال في الدين هو المطلوب والمقصود.

السعي نحو الكمال

يجب أن نعلم أن المقاصد دائمًا تُطلب على وجه الكمال. لا يرضى أحد بالحالة الناقصة. في التجارة مثلًا، عندما يَتَّجِر الإنسان، يطلب فيها أيضًا الكمالُ. ولا أحد يكتفي بالمليون أو المليونين؛ بل يسعى دائمًا للمزيد. وإذا حصل أحدهم على أرباح تفوق حاجته، لا يترك السعي؛ بل يبدأ مشاريع جديدة. فمثلًا، من لديه متجر للسجاد، وبعد أن يزيد رأس ماله، يفتح متجرًا للملابس، ثم للأحذية، ثم يشتري عقارات ليؤجرها. وهكذا، يستمر في التوسع دون توقف، فـ«لا ينتهي أرب إلا إلى أرب»، إلى أن يوقفه الموت، فهو وحده ما يقطع عليه هذا السعي.

ربما يمكنك أن تُرِيَني شخصًا حصل على قدر من المال ثم اكتفى، وتوقف عن السعي، ولكن أولًا، هذا نادر جدًا، قد يكون هناك رجل واحد كهذا في الملايين. والنادر كالمعدوم. وإذا أريتَني رجلًا واحدًا كهذا في الملايين، فإن ذلك لا ينقض كلامي، ولا يقدح في بياني؛ لأن القواعد تُبنى على الأكثر، وحال الأكثر هو ما ذُكر.

وإن وُجد شخص كهذا، فإنه غالبًا ما يكون من أهل الدين لا من أهل الدنيا، ونحن نتكلم الآن عن حال أهل الدنيا. أما إن كان من أهل الدنيا، فإني أجيبك بجوابين:

أحدهما عابر: وهو أن هذا الشخص يرى أن ما بلغه هو غاية الكمال، فلا يرى ما هو أعلى منه، فيكون أيضًا طالبًا للكمال بحسب رؤيته، لا أنه رضي بالحالة الناقصة.

أما الجواب الحقيقي: فهو أن هذا الشخص وإن ترك السعي الظاهر، وأنهى التقدم في صورته، إلا أنه لا يزال في مسار التطور، ولا يزال يتقدم معنًى؛ لأن هذا الشخص عاقل في أمور الدنيا وليس فيها جاهلًا. لقد فهم روح الدنيا بأن المقصود من أسباب المعاش هو سكون القلب وراحته، والانشغال الدائم بأسباب المعاش لا يوفر راحة القلب وسكونه. يظل القلب مضطربًا ومشغولًا، ولذلك بعد أن حصل على رأس مال معقول، أغلق باب التقدم في صورته، لكنه في الحقيقة لا يزال يتقدم. فقد انتقل من طلب الأسباب إلى طلب النتائج والمقصود. فهو الآن يسعى لراحة النفس وطمأنينة القلب، لا لزيادة المال فقط. ومن أجل تحقيق تلك الطمأنينة، قرر أن يكتفي بما حصل عليه من مال وراحة، دون الدخول في مزيد من مشاق الدنيا.

فالخلاصة أن الإنسان في أمور الدنيا دائم السعي نحو الكمال، ولا يكتفي بما حصل عليه، ولا يقف عند حد؛ بل يطلب المزيد، وإن توقف، فلا يكون ذلك عند حالة ناقصة؛ بل بعد بلوغ حد الكمال. وحتى حين يرضى ظاهريًا، فإن حقيقة السعي لا تزال قائمة في قلبه.

التديُّن والقناعة

من أعجب ما يُبتلى به كثير من الناس أنهم يقنعون في الدين بما لا يُقنع به في الدنيا! فالذي لا يرضى لنفسه تجارة خاسرة، أو منزلًا صغيرًا، أو ربحًا محدودًا، تراه يرضى في دينه بأدنى القليل. يصلي صلوات غير مكتملة الخشوع، وربما متقطعة، ثم يرى نفسه من أهل الصلاح، ويحسب أن الجنة مضمونة له. يؤدي الزكاة من رأس ماله مرة في العام، أو يؤديها دون تحرٍ أو صدق، ثم يظن أنه قد برئ من حقوق العباد، ونال رضا الرحمن. فإذا حجّ، امتلأ قلبه عجَبًا بنفسه، وكأنه بلغ مرتبة الأولياء.

وهذا القصور في الهمة، والرضا في الدين بأدنى القليل، والتوهم بأن التدين ينحصر في بعض الشعائر مِن أعظم ما ابتُليت به الأمة. ولا يقتصر سوءُ الفهم هذا على العوام؛ بل إنك تجده في بعض المنتسبين إلى العلم، وفي بعض السالكين للطريق، ممن توهموا حصرَ التدين في بعض الشعائر فقط. بينما الواقع أن التدين الكامل لا يتحقق إلا بالالتزام الشامل، بحيث تتحول جميع جوانب الحياة إلى ميادين لطاعة الله تعالى.

ولذا، فإن القناعة في الدين بحالة ناقصة، ليست قناعة؛ بل غفلة مُهلِكة. ومَن قَبِل بذلك، فقد جنى على نفسه. إن كان في الدنيا، لم يرضَ بأقل من الكمال، فكيف يرضى في أمر الآخرة بما هو دون ذلك؟

والأدهى أن من يسعى إلى التدين الكامل متمسكًا بالعقائد الصحيحة الصافية، ومراعيًا حقوق الله وحقوق عباده، ومتحلِّيًا بأخلاق

الإسـلام الفاضـلة، ومُزكِّيـًا نفـسَه مـن الأمـراض الباطنـة، ويُلـحّ في طلـب كـمال التقـوى، يُوصـم في المجتمـع بالتـشدد وبالغبـاء، ويُنظـر إليـه عـلى أنـه «متشدد أو مبالغ، أو متعمق؛ بل غبيٌّ قليلُ الفهم». والعياذ بالله.

الإعانة الإلهية

لِيعلم كل مسلم أن طريق الكمال في الدين لا يُقطع إلا بعون من الله، ولا يبلغ منتهاه إلا بتوفيق من لدنه. غير أن كثيرًا من الناس يتوهمون أن هذه الإعانة الربانية لا تُمنح إلا لمن بلغ مراتب عالية من الصلاح، فيقعدون عن السعي، ويظنون أن بداية الطريق مستحيلة، فيقول قائلهم: «كيف أستقيم؟ هذا فوق طاقتي! كيف ألتزم الدين؟ هذا صعب جدًا!».

لكن هذا الظن وهمٌ من أوهام النفس؛ بل حيلة من حيلها ليبقى الإنسان في دائرة التراخي. والحق أن الله جلّ وعلا يعين عبده منذ اللحظة الأولى، ومن أول خطوة؛ بل يعينه في لحظة العزم، قبل أن يعمل. فإذا صدق العبد النية، وتوجه بقلبه، فإن الله يفتح له من أبواب الهداية والكمال في الدين ما يعجز العقل عن تصوره. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾(العنكبوت:٦٩)، وقال أيضًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ (الطلاق:٢). تأمل: الله تعالى لا يطلب من العبد أن يبلغ القمة أولًا؛ بل يطلب منه المجاهدة، والنية الصادقة، والإقبال، ويضمن له الهداية والمعونة.

فقدان الفكر وهموم الترقي الديني

رغم أن طريق الدين ميسّر، ومعونة الله مضمونة، تجد غالبية الناس في حالة عجيبة من القناعة العاجزة. لا يفكرون في الترقي، ولا يخطر ببالهم أن الدين درجات، وأن للإيمان مراتب، وأن ما هم عليه لا يعدو أن يكون البداية فقط. وكلٌّ منهم قد اكتفى بما حصل عليه، كأن الجنة ضُمنت، أو أن الخاتمة قد كُتبت على صلاح!

ولا نعني بذلك العوام وحدهم؛ بل حتى الخواص – أهل العلم، والعبادة – قد أصابتهم هذه الغفلة. فمَن انشغل بالتدريس، يكتفي بتعليمه، ويظن نفسه وليًّا صالحًا، لأنه مشغول بـ«قال الله وقال الرسول». ومن انشغل بالذكر، ظن أن ذلك وحده يكفيه، ولا يرى حاجة لإصلاح الأخلاق أو مراعاة أحكام المعاشرة والمعاملة. وكأنّ هذه الأمور ليست من الدين!

إلا أن التساؤل الذي يفرض نفسه هو: إذا لم تكن هذه من الدين، فَلِمَن شُرعت أحكامه؟ وإذا لم نُطالَب نحن بتحقيقها، فهل سيأتي قومٌ آخرون يفعلون؟ وإذا كانت التقوى لا تشمل حياة المسلم كلها، فما معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ (البقرة:٢٠٨)؟ وإذا لم نطبق فروع التقوى الفقهية فهل ذُكِرت تلك المسائل الفقهية عبثًا؟

وإن كان خسران أهل الدنيا في تركهم للكمال في الدين وقناعتهم بالقليل منه خسرانًا عظيمًا، فإن خسرانَ أهل العلم أعظم وأخطر؛ لأن أهل الدنيا إذا حصلوا على قليل من الدين واقتنعوا به فقد نالوا لذة الدنيا وراحتها، أما أهل العلم إذا رضوا لأنفسهم بالقليل من الدين، فإنهم – كما قيل: ضاع علمهم، ولم تنفعه منزلتهم– لم ينالوا من الدنيا شيئًا كثيرا، ولا من الآخرة نورًا وفوزًا عظيما، فهم في تعب هنا وهناك. لا قصر يسكنهم، ولا مال يكفيهم، ولا خدمة تُريحهم، ولا أعمال تُنجيهم. فلا أدري لماذا يرضى أهل العلم ويقنعون بالقليل من الدين؟، ولماذا بعد ترك الدنيا لا يفكرون في الكمال في الدين؟

حال الصحابة الكرام (رضي الله عنهم)

أما حال الصحابة رضي الله عنهم، فكانت مختلفة تمامًا. كان الصحابة رضي الله عنهم أشد الناس حرصًا على الأعمال الصالحة، وثوابها، وعلى ما يرفع درجاتهم، وينالون به رضا الله عز وجل.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم؟ ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم، قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: تسبحون، وتكبرون، وتحمدون، دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة. قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ.(رواه مسلم، الرقم:٥٩٥)

كان الأغنياء من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع ما بين أيديهم من مال وخير، لم يكتفوا؛ بل سارعوا إلى ذكر جديد علّهم يسبقون. لم يقولوا: نحن نُصلي ونزكّي وننفق، فما حاجتنا لمزيد؟ لا! بل رأوا أن كل وسيلة للزيادة في الأجر فرصة لا تُفوت. وكان هذا حال أغنياء الصحابة رضوان الله عليهم؛ إذ كانوا لا يزالون يسعون إلى التقدّم في مراتب الدين، فكلما بلغهم عملٌ صالحٌ سارعوا إليه وتسابقوا، حتى صار من العسير على الفقراء منهم أن يسبقوهم في ميادين الفضل والقرب.

وكانت عندهم أموال كثيرة، لكن قلوبهم لم تتعلّق بها لحظة، فهؤلاء هم الأغنياء الذين دار بسببهم خلاف الصوفية: أيهما أفضل، الصبر أم الشكر؟ إذ المقصود بالشاكرين عندهم هم أمثال الصحابة رضوان الله عليهم، لا أمثالنا نحن الذين يأكلون من نعم الله ويزدادون بها جرأة على معصيته. ولو اطّلع أولئك الصوفية على أغنياء

زماننا، لمالوا إلى أن الصابر خيرٌ من الشاكر إلا من رحم الله.

وها نحن اليوم، لا يُعَدّ التقدّم على أغنياء زماننا في شؤون الدين أمرًا صعبًا، ومع ذلك، فالعجيب أننا لا نغار! فنحن دونهم في أمور الدنيا، فهل نرضى أن نكون دونهم في أمور الدين أيضًا؟!

وخاصة أهل العلم، فإن غيرتهم في هذا الباب أولى وأحرى، فكما لا يملّ أهل الدنيا السعي في الرقي الدنيوي، ينبغي لأهل الإيمان أن لا يملّوا السعي إلى الكمال في الدين. وقد دلّنا الله تعالى في هذه الآية الكريمة التي هي نحن فيها على طريقٍ يسيرٍ، لمن أراد الفوز والتقدّم في ميادين الآخرة.

مفهوم التقوى

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(التوبة:١١٩)، يا من آمنتم، خذوا لأنفسكم زادًا من التقوى، وكونوا في رفقة الصادقين.

وفي هذه الآية، جاء الأمر بالتقوى أولًا (وهو المقصود كما سبق)، وقد ثبت أعلاه أن الكمال مطلوب في كل مقصود. والآن يجب إثبات أن التقوى هي كمال الدين أم لا؟

وبالتأمل يتجلّى هذا المعنى بوضوح في النصوص الشرعية؛ فقد تكرر الأمر بالتقوى، وورد بيان فضلها في آيات كثيرة من القرآن، حتى قلّ أن نجد فضيلة أُكِّدت مثلما أُكِّدت التقوى، مما يدل على رفعة مكانتها في شريعة الإسلام.

أما من حيث الحقيقة، فإن استعمال التقوى في الخطاب الشرعي يأتي غالبًا على معنيين: أحدهما الخوف، والآخر الاجتناب، (أي الاحتراز والابتعاد). وبتأمل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، يتبيّن أن المعنى المقصود أصالةً بالتقوى هو الاجتناب، أي الابتعاد عن المعاصي (المعنى الثاني)، أما الخوف، فهو الدافع الباطني والباعث القلبي الذي يثمر هذا الاجتناب. فمتى تمكّن الخوف من القلب، دفع صاحبه إلى الحذر والبعد، إذ طبيعة الإنسان أن يفرّ مما يخشاه.

وقد استُعملت «التقوى» بمعنى الخوف في آية: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ (آل عمران:٢٨)، أي تخافوهم. وأما الاستعمال الغالب في النصوص الشرعية، فهو بمعنى الاجتناب والاحتراز. ومن أبرز شواهده: الحديث النبوي الشريف: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» (أخرجه البخاري في صحيحه، الرقم:٣٥٩٥، ومسلم في صحيحه، الرقم:١٠١٦)، أي اجتنبوا عذاب النار ولو بأدنى وسيلة من وسائل النجاة، كالتصدق بنصف تمرة. فالمعنى هنا هو الاجتناب والاحتراز. ولا يصح هنا معنى الخوف.

فالاستعمال وارد للفظ التقوى بالمعنيين، غير أن المقصود الأصيل هو الاجتناب والاحتراز من المعاصي، والخوف على الإطلاق ليس مقصودًا لذاته؛ بل هو وسيلة تؤدي إلى ذلك الاجتناب أي

الاحـتراز مـن المعـاصي. ودليـل ذلـك مـا ورد في الحـديث، أن النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كـان يقـول في دعائه: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ». (جامع الترمذي، أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، الرقم:٣٥٠٢) (أي نسألك من خشيتك ما يكون حاجزًا بيننا وبين معاصيك). فمن هذا يُعلم أن الخوف ليس مطلوبًا بإطلاقه؛ إذ لو كان مقصودًا لذاته، لكان كل درجاته مطلوبة. ولا تكون أي درجة منها غيرَ مقصودة. لكن النبي ﷺ قيد المطلوب منه بكونه حاجزًا عن المعصية، فدلّ ذلك على أن الخوف المحمود هو ما كان باعثًا على الطاعة وكافًّا عن الذنب، لا ما جاوز هذا الحد حتى صار مُقعِدًا أو مُثبِّطًا.

وما أوجزه النبي ﷺ في هذا الحديث من بيان لحقيقة الخوف، لا يدركه السالكون في طريق الله إلا بعد سنوات من المجاهدة. قد يظن الإنسان أن الخوف من الله تعالى، لما فيه من الخير، كلما اشتد زاد فضلُه، غير أن التجربة والملاحظة تدلّان على أن تجاوزَ الحدّ في هذا الخوف قد يفضي إلى آثار سلبية وأضرار نفسية وسلوكية:

أولًا: قد يُضعف الخوف الشديدُ صحةَ الإنسان، ويُشغله بالحزن والهمّ الدائم، مما يعيقه عن أداء الفرائض والقيام بالأعمال الصالحة.

ثانيًا: يُثبّط هِمَمَ الآخرين، فيتوهمون أن رضا الله أمرٌ عسير المنال، فيزهدون في السعي إليه.

ثالثًا: وقد يُفضي إلى اليأس من رحمة الله، وهو من أعظم المهالك؛ بل من مظانّ الكفر – نعوذ بالله من ذلك-. فإذا طغى الخوف، وقع الإنسان في القنوط، وظن أن لا نجاة له، فترك العمل بالكلية.

ومن هنا، يُدرك السالكون في طريق الله أن الخوف المحمود له حدّ، وأن المبالغة فيه مضرّة، وأن كل درجة من الخوف ليست بمطلوبة، وقد نبه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى هذه الحقيقة بكلمة موجزة بليغة.

ولما ثبت أن المقصود الأصلي من التقوى هو اجتناب المعاصي، فإن تحقق هذا الاجتناب هو بعينه تحقيق كمال الدين وتمامه. إذ إن ترك المعاصي يتضمن أداء الفرائض والواجبات، والابتعاد عن المحرمات، ولا يخرج عنه أيُّ مقصودٍ شرعي؛ بل هو جامع لكل نواهي الشرع وأوامره. فمثلًا، الصلاة واجبة، وتركها معصية. والزكاة واجبة، وتركها معصية. فحين يجتنب الإنسان المعصية، يكون قد امتثل الأمر، وترك النهي، وهذا هو تمام الدين وكماله أي أداء الواجبات، وترك المحرمات. وعليه، ثبت -جليًّا- أن التقوى بهذا الاعتبار تمثل كمال الدين في صورته العملية والتطبيقية.

ودليل آخر من الأدلة على أن التقوى هي كمال الدين وتمامه: قول النبي ﷺ: «التَّقْوَى هاهُنا. ويُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ» (أخرجه مسلم في صحيحه، الرقم:٢٥٦٤)، أي أن محلها وموضعها

الأصلي هو القلب. وهذه هي المقدمة الأولى. أما المقدمة الثانية: فهي ما ورد في الحديث الشريف: «أَلَا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وهي القَلْبُ». (أخرجه البخاري في صحيحه، الرقم:٥٢) فدل الحديث على أن صلاح القلب هو صلاح كامل.

فمن مجموع الحديثين يتبين أن صلاح القلب أساس صلاح الجسد كلّه، وأن التقوى – لكونها متعلّقة بالقلب – هي أصل هذا الصلاح العام. ومنه نخلص إلى أن التقوى، بما أنها تصلح القلب، فإنها تستلزم كمال الصلاح في الإنسان، وهذا عين كمال الدين وتمامه. وقد خصّ القلب كمحلّ للتقوى؛ لأن اجتناب المعاصي (وهو لبّ التقوى) إنما يكون بدافع الخوف من الله، والخوف محلّه القلب.

وبذلك يتمّ الكلام على الجملة الأولى من الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾(التوبة:١١٩).

بيان معنى الصادقين

(الصادقون هم الكاملون في الدين)

وأما الجملة الثانية: (وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ)، فهي في مقام بيان السبيل إلى تحقيق المقصود الأول، وهو التقوى، التي ثبت أنها كمال الدين. وخُلاصة المعنى أن الصحبة والمعية مع «الصادقين»، وهم في هذا السياق المتقون، هي الوسيلة الموصِلة إلى هذا المقصود. فـ«الصادقين» في الآية الكريمة ليسوا إلا عنوانًا آخر للمتقين، ومعنى «المتقين» هو الكاملون في الدين (كما ثبت فيما سبق)، فلفظ «الصادقين» سيكون له نفس المعنى، أي أن طريق التقوى (كمال الدين) هو صحبة ومعية الكاملين في الدين. وعليه، فمعنى (وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ): «كونوا مع الكاملين في الدين»، أي الزموا معيتهم.

ولا يُراد بالصادقين هنا مجرد من صدق قوله؛ بل المراد من ثبت في الدين ورَسَخ فيه. كما نقول في لغتنا (الأردية): «فلان صادق» بمعنى أنه رجل ثابت راسخ، لا يتزحزح. ولهذا السبب، وصف الله بعض أنبيائه بصفة «صِدِّيق»: كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (مريم:٤١).

فالصديقية هي المرتبة التي تلي النبوة، ثم بعدها الشهادة، ثم الصلاح. وقد ذكر الله تعالى هذه المراتب بهذا الترتيب في قوله: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء:٦٩)، والرسوخ في الدين هو عين كمال الدين.

وعليه، فإن تفسير «مع الصادقين» بـ«مع الكاملين» صحيح، وهو مدعوم أيضًا من آية أخرى، هي قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾؛ بل هذه الآية تُثبت دعواي في التقوى والصدق، أي أن معناهما كمال الدين وتمامه.

الآية الكاملة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧).

فخلاصة الأمر أن الصادق والمتقي هو من اتصف بهذه الصفات التي ذُكرت في الآية، وهذه الصفات تتضمن وتشمل كل عناصر الدين وجميع أجزائه إجمالًا، فلا جزء من الدين خارج عنها، فهي متضمنة لكمال الدين. ثم بقوله عز وجل: «أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ» (أي من اتصف بهذه الصفات فهو الصادق والمتقي)، يثبت بوضوح أن الصادق والمتقي هو الكامل في الدين، فحقيقة الصدق والتقوى هي تمام الدين وكماله.

فالدعوى التي ذكرتها في الآية: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهي أن معنى «ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ» هو «اكملوا في الدين وكونوا مع الكاملين»، أصبحت واضحة بلا غبار، وقد أيدها القرآن نفسه، ومن الواضح أن التفسير الذي تؤيده آيات أخرى من القرآن هو الأولى بالقبول.

الطريق إلى الكمال

ومعنى الآية إذًا: «يا أيها المسلمون، اكملوا في دينكم، والطريق إلى ذلك الذي بيّنه الله هو أن تكونوا مع الكاملين». وهذه طريقة عجيبة في الوصول إلى الكمال، لا يستطيع أي سالك في طريق الله أو محقق أن يبينها كما بيّنها الله. فمن ذا يخطر بباله أن صحبة الكاملين قد تقود إلى الكمال؟!

لكن ينبغي أن يُفهم هذا جيدًا: ليس المقصود أن مجرد الصحبة وحدها تكفي دون عمل. فلو أن شخصًا ظل سنوات طويلة مع الكاملين دون أن يعمل شيئًا، فلن يصل إلى الكمال أبدًا.

والحقيقة: أن الطريق الأصيل إلى الكمال هو إتقان الأعمال بفعل الطاعات، واجتناب المعاصي. فقد وصفت آية: «لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ...» أهل البر والتقوى بأعمالهم. وبعد ذكر هذه الأعمال، وُصفوا بأنهم صادقون ومتقون، مما يدل على أن الكمال في الدين متعلق بكمال الأعمال.

لكن كيف نكمل ونتقن الأعمال؟ العقبة الكبرى أمام كمال الأعمال هي «النفس». فالنفس تعارض كل أمر شرعي. فالشريعة تأمر بالوضوء في البرد، والنفس تطلب الراحة. الشريعة تأمر بدفع الزكاة، والنفس تميل إلى البخل. الشريعة تحرّم الرشوة والربا، والنفس تميل إلى الحرص. الشريعة تنهى عن النظر إلى الأجنبيات، والنفس تميل إلى الشهوات. الشريعة تنهى عن التطلع إلى أموال الناس عند الفقر، والنفس تميل إلى الحسد والحرص.

وعلى هذا، كل حكم شرعي يقابله مقاومة من النفس. بينما قد أمر الله بالكمال في الدين، وبيّن أن ذلك يكون بجمع الأعمال وبإتقانها. إذن، ما الحل أمام مقاومة النفس لكل هذه الأوامر والنواهي؟ وما علاج هذه الرغبات النفسية الكثيرة التي تعيق العمل بكل أمر؟

مقاومة النفس وعلاجها

أزال الله سبحانه وتعالى في قوله: «وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ»، هذا المانع العظيم، أي مقاومة النفس، وبيّن علاجه. وخلاصة هذا العلاج: أن المعية مع الصادقين – أي الكاملين في الدين – تزيل مقاومة النفس في الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا بقي من مقاومة النفس شيء، فإن التغلب عليه يصبح سهلًا. وبهذا، يُمكن المرء أن يُكمل أعماله بسهولة، ومن ثم يتحقق له الكمال في الدين.

فانظروا، ما أسهل هذا العلاج؟! كأنها وصفة زهيدة وثمرتها عظيمة؛ بل هو علاج بالأعشاب لا يكلف شيئًا، ومع ذلك يعالج أعقد الأمراض.

والطريق الذي بيّنه القرآن لنيل الكمال الديني هو في الحقيقة طريق لإزالة المانع الأصلي، والعائق الرئيسي، وهو مقاومة النفس. ولأن الطريق إلى الكمال صعب ما دام هذا المانع موجودًا، فإذا ارتفع وأُزيل، سهل الوصول. فلو قيل: إنه هو نفسه طريق إلى الكمال، فلا ضير في ذلك؛ لأن العلة التامة تتركب من وجود الشروط وارتفاع الموانع، وكلاهما له دخل في تحقق المعلول، وإن كان وجود المعلول لا يتوقف إلا على الجزء الأخير. فالمعلول – أي الكمال الديني – لا يتحقق إلا بهذه الأسباب التامة، ومن جملتها إزالة عوائق النفس. وهذا ما أوضحته الآية القرآنية بأسلوب بديع. قد بُيِّن في هذه الآية طريق إضعاف مقاومة مطالب النفس. ومَن ذا الذي يمكنه أن يبتكر علاجًا أيسر من هذا؟!

لقد وضع أهل الفن طرقًا كثيرة لإصلاح النفس، تحتاج إلى صبر وهمّة عالية، وأعمال شاقة، والعمل بها من شأن أصحاب الهمم العالية. ولكن هذا الطريق (المذكور في هذه الآية) سهل جدًا لدرجة أن العمل به ليس شاقًا على أحد. وهذا ليس مجرد ادعاء من القرآن؛ بل هو أمر مشاهد ومُجرّب. فكل من جالس الكاملين الصادقين، لمس هذا الأثر في نفسه، حيث تضعف مقاومة النفس، ويشعر بانجذاب نحو الطاعة، ونفور من المعصية.

رسالة ختامية

إن طريق التقوى أو الكمال في الدين ميسّر لمن صدق في طلبه، وأعظم معين عليه – بعد توفيق الله – صحبة الصالحين الكاملين. فلنجعل هذه الآية الكريمة منهجًا لحياتنا: نسعى إلى التقوى والكمال في الدين، ونلتمس ذلك في صحبة الصادقين.

والله يهدي السبيل.

* * *